الهزيمة في لبنان
وإعادة تقييم دور المثقفين

الدكتور حسام الخطيب

بصراحة، شبعنا هزائم وشبعنا اعادة تقييم، وشبعنا كذلك اعادة توزيع أدوار. في كل سنة أو سنتين أو ثلاث (وندر ان اكملنا عقداً من السنين) يُطلّ علينا شبح هزيمة ونحن نتراجع من موقع إلى آخر ومن خط دفاع الى اخر من ورائه، ودائماً نستبسل ونضحي ونقاتل ونصمد، ولكن العدو يلتفّ على صمودنا لأنه يأتينا من الخلف لا من الأمام، أو يأتينا على جناح السرعة بدلاً من جناح التؤدة والتأني، أو يخاطبنا بلسان العصفورة بدلاً من الكلام المبين، والقانون الدائم هو:

هزيمة غير مؤكدة ← هزيمة مؤكدة ← تغطية على الهزيمة بدعوى البسالة ← تحول تدريجي من مفهوم الهزيمة الى مفهوم انتصار الارادة ـ نسيان الهزيمة وتحريم تحليلها وبقاء انتصار الارادة ـ رشّ السكر على الموت (الخاتمة).

ويسألونك بعد ذلك عن دور المثقفين؟ من قال ان المثقفين يمكن أن يكون لهم دور في أمة لا دور لها حتى في ما يتعلق بأبسط تفصيلات تاريخها الحاضر؟ لو كانت الهزيمة ذات طابع خارجي، أي انها مجرد تقهقر عسكري، لأمكن أن يبقى ما يقال، ولكن ـ على من دعاوي انتصار الارادة ـ فإن أشباح الهزيمة تتراقص فوق كل مستوى من مستويات حياتنا ولا سيما المستوى الفكري والمستوى النفسي وقبل ذلك ذاك المستوى المعروف الذي لا نجرؤ ان نتحدث عنه لأنه، كما تعلمنا من (كليلة ودمنة)، تنبثق أثمن حكم التقيّة من رأس الثور المقطوع.

وماذا بعد؟ هل نحن مستسلمون؟

لا ولا يمكن ولا يصح.

وإن مجرد مقارنة بسيطة بين الامكانات والقوى على الجانب العربي والامكانات وميزان القوى على الجانب الصهيوني تدل بوضوح على أننا في أية لحظة نستطيع أن نقلب الميزان، أي بالضبط حينما نتمكن من وضع قوانا في كفة الميزان. إن العدو يتربع في الكفة المقابلة بكامل وزنه وحتى وزن أظافره محسوب بدقة، ونحن نتسلى في الكفة، فحيناً نضع يداً وحيناً نضع رجلاً وحيناً نضع ذنباً، مجرد ذنب نخبط به الكفة وعلى الدنيا السلام، وبمصطلحات بعيدة عن تهويمات الأدب كله تقول الدراسات الاستراتيجية ان ميزان القوى الدينامي (اي المتحرك أي الموظف لصالح المعركة) هو إلى جانب العدوّ، ولكن ميزان القوى الستاتيكي (أي الساكن والمكامن وغير الموظف) هو الى جانب الطرف العربي بشكل صارخ.

إذن نحن بحاجة الى عملية تحويل، وعملية التحويل من الساكن الى المتحرك ومن الستاتيكي الى الدينامي هي عملية داخلية، وهي تحتاج لانتفاضة من الداخل ولتغلب على الذات ولبناء تربوي وثقافي واجتماعي وسياسي سليم.

فهل للمثقفين دور في ذلك كله؟

يميل الانسان بصورة طبيعية الى التأكيد على

وجود هذا الدور بسبب تصور المثقفين كطليعة، أي تصورهم خارج حدود ظاهرة الهزيمة، وهذا التصور مبالغ فيه. فالمثقف جزء من الظاهرة الاجتماعية والمرحلة والطبقة والأمة. وما زال قراء سارتر يذكرون كيف انه انتهى الى التأكيد على أن إمداد الجياع في جنوب شرق آسيا بسفينة أغذية أفضل من كتابة آلاف الأسطر، وان الكتابة ليس لها أن تنقد او تعزي او تخلص لأنها ليست خارج اطار ما (لا اذكر كلماته بالضبط ويمكن مراجعة سيرته الذاتية «الكلمات» Les Mots).

ولكن، أيضاً كما قال سارتر، ليس علينا سوى ان نستمر في الكتابة.

وليس المقصود هنا إلغاء دور المثقفين ولا نشر اليأس، ولكن تنبيه هذه الأمة لعدم تكرار الخطأ الذي كررته مئات المرات حتى الآن، وهو عدم تعليق كل الثياب على مسمار واحد حتى لو لم يكن واهياً. للمثقفين دور ولكن هذا الدور مرتبط بالكفاح السياسي والعسكري وبالعمل الحزبي وبالأيديولوجيا وبكل شيء آخر. للوجدان دور ولكن وجدان المثقف أسير اعتبارات سياسية واجتماعية قاتلة. للكلام الجميل والفن دور ولكن معطيات الواقع تغلب كل دندنة.

وهناك أشياء يستطيع أن يفعلها المثقفون وأشياء لا يستطيعون ان يفعلوها. وليس سهلاً علي في هذه العجالة أن اقترح خطوطاً لما يمكن أن يفعلوه، ولكن سوف اعتقد اننا بدأنا الدرب أو سلكنا طرف الخيط حين يبدأ المثقفون بالتفريق الصارم بين ما هو ثقافي وما هو اعلامي، بين ما هو تحليلي وبين ما هو خطابي، بين ما هو علمي وبين ما هو ديماغوجي، بين ما ينبغي ان يكون عقلياً ومنطقياً وبين ما هو عاطفي ونفسي، وبين ما هو واقع فعلاً وما ينبغي أن يكون، وأخيراً بين الممكن واقعياً وبين الرغبي والمشتهي.

إن البدء بهذا الخط كفيل بأن يقود الى الخطوط الأخرى وأهمها **استعادة مقدرة المثقف في التأثير**، فمهما قيل في دور المثقف فإنه يستحيل اختصار هذا الدور على المرسل ونسيان الطرف الآخر (المتلقي أو الجمهور). ان جوانب كثيرة من الثقافة العربية تتجه بوضوح الى نسيان وجود الطرف الآخر الذي بغيره لا تحيا ثقافة ولا يكون فن. وإ ا يبدأ شفاء دور المثقف من شفاء علاقته بجمهوره وشعبه. ولذلك ولغيره قصة طويلة نرجو أن نتمكن من العودة إليها.

وحتى لا يكون هناك التباس فيما أرادت هذه العجالة أن تؤكده فلنقل ثانية: إن دور المثقف مهم ولكن يجب الا نعلق عليه من المسؤوليات ما يفوق طاقته، وان المثقف جزء من ظاهرة التخلف ولذلك لا يستطيع وحده ان ينهض بالعبء، وأخيراً إن الوطن العربي يزخر بالإمكانات، وفي أية لحظة نجد الطريق الى توظيف امكاناتنا للمعركة فسوف ترجح الكفة وتثبت للجميع هشاشة عدونا وضخامة نقاط ضعفه التي لا يسترها سوى عجزنا.

دمشق

دار الآداب تقدم

الدراما التجريبية في مصر والتأثير الغربي عليها

الدكتورة حياة جاسم محمد